

ملاحظات حول نشأة دولاّب الفخاري

وتطوره في العراق

بقلم : بهنام أبو الصوف
ملحق

الوركاء • وهذان الرأيان وان كانا لا يخلوان من الحقيقة ففيمهما شيء من الوهم والتعميم^(٢) • ان جميع القرائن المتوفرة في الوقت الحاضر تدل دلالة قاطعة على ان منشأ دولاّب الفخاري هو العراق • وان تلك النشأة لم تحدث فجأة في عصر الوركاء كما كان سائدا^(٣) ، بل جاءت بخطوات

تساءل الاستاذ هنري فرنكفورت قبل أكثر من أربعين عاماً ، في دراسة قيمة بحث فيها أقدم فخاريات الشرق الأدنى ، عن المواطن التي نشأ فيه دولاّب الفخاري وما اذا كان نشوءه قد حدث في موضع واحد ثم انتشر منه الى بقاع أخرى ؟ أم انه حصل في أماكن مختلفة وفي آن واحد^(١) ؟

(٢) اننا لا نتفق مع الرأي القائل بأن فخار العراق القديم كان قد صنع باليد حتى ظهور الدولاّب السريع في عصر الوركاء والقائل أيضا بأن ليس هناك أدلة على استعمال أي نوع كان من الدولاّب سواء أكان بطيئاً أم سريعاً قبل ذلك العصر (أي عصر الوركاء) • انظر سومر : ٢٠ [١٩٦٤] ص ٩٤ •

(٣) انظر : نفس المرجع السابق ص ٩٤ • من المحتمل ان نشأة وتطور دولاّب الفخاري من أبسط أشكاله حتى بلوغه المرحلة التي عرف فيها بالدولاّب السريع كانت في مدينة الوركاء كما أظهرته نتائج حفرة الجس العميقة Deep Sounding في ذلك الموقع • ولكن هذه النشأة كانت في النصف الثاني من عصر العبيد وليس في عصر الوركاء • انظر الشواهد الواردة في المقال •

ولندرة الأدلة الأثرية في حينه لم يستطع فرنكفورت تقديم جواب قاطع في هذا الشأن •

ومن المتفق عليه ان دولاّب الفخاري قد عُرِف أول مرة في مكان ما من الشرق الأدنى في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد ، ومن التسامع أيضا ان هذه الآلة المهمة في صناعة الفخار وتطوره وانتشاره كانت من مبتكرات عصر

(١) انظر

Frankfort, Henri : 1924 "Studies in early pottery of the Near East", p. 7.

اليد وليس لها أي نتائج مرئية على شكل الأناء أو مظهره . الا انها ، عدا كونها تسهلا لعمل الفخاري نفسه ، فانها تعتبر خطوة اولى قادت الى مراحل أعقبها .

ولعل العراقيين القدامى عرفوا استعمال هذا المسند قبيل عصر العبيد بزمن طويل . ومن الجدير ذكره في هذا الصدد ان فخاريي جزر قبرص وكريت وصقلية مازالوا يستعملون هذا المسند لتشكيل أوانيهم الفخارية الى يومنا هذا .

المرحلة الثانية : في هذه المرحلة ثبَّت القرص

الخشبي الآنف الذكر على محور (Pivot) مما سهل تدويره بسرعة كما يدور المغزل ، مما أدى الى تمركز كتلة الطين المراد تحويلها الى اناء . وأصبح الفخارون الآن في حاجة الى مساعد لتحريك القرص بحيث يتفرغ هو بكتلتا يديه للعمل في الأناء^(٥) . والآلة تعرف في هذه المرحلة بالدولاب البطيء (التورنيت Tournette) . وقد عرفت في النصف الثاني من عصر العبيد^(٦) (من المحتمل ان أهالي دور العبيد في مدينة الوركاء قد عرفوا استعمال الدولاب السريع أيضا) فقد جاءتنا من مواقع مختلفة من جنوبي العراق فخاريات تعود الى هذه الفترة مصنوعة على هذا الدولاب . فخاريات عصر العبيد التي كشف عنها في الطبقات الأربع السفلى (من الطبقة ١٨ والى نهاية الطبقة ١٥) في باطن حفرة الجس

بطيئة وعلى مراحل عدة (كما هي الحال تماما في أي ابتكار أو اختراع آخر قبل وصوله الى مرحلة النضج النهائي) اجتازتها تلك الآلة في عصور سبقت عصر الوركاء حيث وضعت أسس الاختراع الاولى التي أدت الى اكتمال تطورها في مستهل ذلك العصر . وهذا مثبت بالشواهد الأثرية التي جاءتنا من مواقع عديدة في العراق ، ولعل من المفيد قبل الخوض في هذه الشواهد ، التعريف بتلك المراحل التي اجتازتها الآلة قبل بلوغها ماكانت عليه في أوائل عصر الوركاء .

المرحلة الاولى : وفيها اتخذ الفخاري مسندا

خشبيا ، قرصي الشكل على الغالب ، ليضع عليه كتلة الطين المراد عمل الأناء منها . وهذا المسند الخشبي يوضع عادة على الأرض والصانع يحركه بحرية الى جميع الجهات ومن فوقه كتلة الطين .

والمفروض أن الفخاري كان قبل استعماله لهذا المسند الخشبي يضع كتلة الطين على الأرض مباشرة ثم يبدأ بعمل الطرف المواجه له^(٤) . وعند الانتهاء منه ينتقل بجلسته الى الطرف المعاكس لتشكيل النصف الآخر وهكذا . ومن الواضح أن هناك خطرا على الأناء فيما اذا حرك وهو في حالة رطوبة وشديد الالتصاق بالأرض . وباستخدام القرص الخشبي في امكان الفخاري البقاء جالسا في محل واحد وتحريك المسند ومن فوقه الأناء الى جميع الجهات بدون تعريضه للتشويه . وهذه المرحلة في الواقع لا تختلف كثيرا عن استخدام

(٥) انظر فرانكفورت في المرجع المذكور في

حاشية رقم (١) ص ٨ .

(٦) انظر :

Woolley, Sir C. Leonard: 1935 "The Development of Sumerian Art", p. 34.

(٤) انظر الصورة التخيلية لصانعي وملوني

الفخار في الاربعية :

"The Dawn of Civilization", 1961; pp. 52-53.

فخاريات عصر العيد في موقع العقير صنعت على
الدولاب البطيء^(١٠) .

وهكذا نجد بأن الفخار في عصر العيد لم
يكن كله معمولا باليد بل ان الدولاب البطيء
(وربما السريع أحيانا) قد عُرِفَ واستخدامه في
أماكن عديدة من جنوبي العراق لعمل أصناف
كثيرة من فخاريات النصف الثاني من ذلك
العصر . وان كانت الشواهد على معرفة تلك الآلة
غير وفيرة من الشمال في ذلك العصر فان هنالك
دليلا بارزا يثبت استخدام دولاب العربة في تلك
المنطقة منذ ذلك الزمن . فمن الطبقة الثالثة عشرة
من موقع تبه كوره جاءنا أقدم نموذج معروف
لدولاب عربة كبير الحجم من الطين . وهذا بلا
ريب دليل قاطع على ان العربة كانت معروفة في
الشمال منذ منتصف عصر العيد^(١١) . واذا ما
علمنا بأن دولاب الفخاري هو في الحقيقة تقليد
لعمل دولاب العربة^(١٢) ، تبين لنا بالتالي ان
المعرفة بهذه الآلة ليست وليدة عصر الوركاء بل
هي من مبتكرات دور العيد ، وان شمالي العراق
قد تمرس هو الآخر على استعمال هذا الاكتشاف

(١٠) انظر :

Joan Lines: Dissertation, Cambridge
1953. "The Al'Ubaid Period in Mesopotamia
and its Persian affinities", pp. 52, 55 and
344.

(١١) جاء رسم دولاب العربة على فخاريات
من عصر حلف ، ولكن البعض يشك في كونه دليلا
على استعمال العربة في ذلك العصر السابق لدور
العيد .

(١٢) انظر :

Harry, L. Shapirò: 1960 "Man Culture
and Society", p. 235.

العميقة في الوركاء قد صنعت بهذا الدولاب^(٧) .
ومن المعتقد أن القسم السمج من هذه الفخاريات
هي التي عملت على الدولاب البطيء بينما الفخاريات
الأخرى الجيدة الدقيقة الصنع قد عملت على
الدولاب السريع^(٨) . ولعل من المفيد أن نشير
هنا الى أن هذه الفخاريات قد وجدت جميعا في
طبقات لم تمتد اليها أيدي العابثين . وفي موقع
ريدو الشرقي قرب الوركاء عثر على نماذج من
فخاريات عصر العيد عملت بواسطة الدولاب
البطيء ، كما وجد ما يشابهها في موقع حاج محمد
في جوار الوركاء أيضا^(٩) . وفي موقع العيد عثر
على فخاريات لعلها من عصر العيد ، اعتمد في
صنعها على الدولاب البطيء . أما فخاريات عصر
العيد في أريدو (أبو شهرين) فليس فيها ما يدل
على استعمال الدولاب السريع ولكن هنالك أمثلة
عديدة في النصف الثاني من ذلك العصر عملت
كلها بواسطة الدولاب البطيء . كما أن جميع

(٧) انظر : تقارير البعثة الالمانية في الوركاء
المنشورة في : UVB. IV. pp. 32-33.

ولكن الاستاذ كوردن جايلد Gordon Childe

يخالف فون هالر Von Haller في اعتقاده بأن هذه
الفخاريات قد عملت على الدولاب السريع ويرجح
بأن الدولاب البطيء (التورنيت) قد استعمل لهذا
الغرض . انظر :

"New Light on The Most Ancient East",
1952, p. 117.

والموقوف على تفاصيل أخرى عن التطور
التاريخي لنشوء العجلة ودولاب الفخاري راجع
بحث الاستاذ جايلد في :

History of Technology, Vol. I. Oxford
1955. pp. 195-204; and pp. 204-214.

(٨) انظر :

Perkins, Ann Louise: 1949 SAOC No.
25, p. 78.

(٩) نفس المرجع السابق ص ٨٠-٨١ .

وهذه الفخاريات كما هو معلوم مصنوعة

على الدولاب السريع بينما الأخرى التي وجدت في طبقات أسفل في نفس الموقع والتي هي من عصر العبيد عملت على الدولاب البطيء . وهذا كله خليق بأن يجعل من مدينة الوركاء الموطن النموذجي لنشأة دولاب الفخاري وتطوره في عصر العبيد واكتماله في أوائل عصر الوركاء .

وحين توصلنا الى هذه النتيجة يجب أن لا ننسى بأن هنالك الى الشرق من الوركاء في بعض مواطن الفخار القديم في ايران قرائن قد تضارع في القدم مثيلاتها في العراق . ففي موقع السوس (Susa A) عثر في أعالي طبقتها الاولى على فخاريات معمولة على الدولاب البطيء . وكذلك في باكون أ (Bakun A) ، كما ان فخاريات أعالي الطبقة الثالثة في سيالك (Sialk III 6-7) أيضا عملت على هذا الدولاب (١٥) . وهذه الفخاريات كلها تعود الى أواخر عصر العبيد ومستهل عصر الوركاء في العراق . ولكن هذا لا يعني بالضرورة بأن هنالك تأثيرا ايرانيا في الموضوع ، لأن أقدم دولاب عربية كان رأينا قد عرف في العراق ، كما ان تأثير فخاريات العبيد العراقية على اختها الايرانية لا ينكره باحث . وربما كانت معرفة الايرانيين بدولاب الفخاري جاءتهم من جنوبي العراق عن طريق السوس ثم الى غيرها من مواطن الحضارة الايرانية القديمة .

(١٥) انظر المرجع المذكور في الحاشية رقم (١٠) ص ٢٩٤-٢٩٥ ومن المرجح ان بعض فخاريات Sialk III-4 (والتي تعاصر النصف الأخير من دور العبيد) قد عملت بواسطة الدولاب البطيء أيضا .

منذ ذلك الزمن (١٣) .

المرحلة الثالثة : اكتمل تطور دولاب الفخاري في هذه المرحلة وتحررت يدا العامل نهائيا حيث أخذ يحرك الدولاب بقدمه بدلا من يده . وأصبحت تدعى هذه الآلة الآن بالدولاب السريع Fast-Wheel أو أحيانا بالدولاب الطيار Fly Wheel أو بدولاب الفخاري الحقيقي True Potter's Wheel

ومن هذا نرى بأن العراقيين القدامى قد ابتكروا آلتهم هذه وطوروها في النصف الثاني من عصر العبيد حيث تكاملت وظهرت في أوجها في مستهل دور الوركاء حين أخذوا يكترون من صنع فخارياتهم بواسطة . وقد أثر استعمال الدولاب السريع في شكل الآنية كثيرا ، وهذه ضرورة أملت لها طبيعة بناء تلك الأواني على هذه الآلة (١٤) . وهذا واضح في أشكال فخاريات عصر الوركاء بأنواعها الثلاثة الحمراء والرمادية والآخرى الخالية من الاصباغ . ونشاهد هذا التطور واضحا جليا في مدينة الوركاء بالذات حيث ينعكس ذلك في طبقاتها غير المشوشة حين تبدأ فخاريات عصر الوركاء بالظهور في الطبقة الخامسة عشرة ثم تكثر وتزدهر في الطبقة الرابعة عشرة التالية لها فما فوق .

(١٣) عملت بعض فخاريات الطبقة الثانية عشرة في تبة كورة ، والتي تعود الى أواخر عصر العبيد ، على الدولاب البطيء (التورنيت) . انظر : Tobler, A: 1950 "Excavation of Tepe Gawra, Vol. II, p. 146.

(١٤) كما ان انتشار استخدام المعدن في عمل الاواني في بداية عصر الوركاء قد أثر بلا شك في أشكال آنية فخار ذلك العصر حيث ان فخاري عصر الوركاء قلدوا بعض التقليد أشكال اواني المعدن .